القيم التربوي في لباس المرأة وزينتها وأثرها في تشكيل شخصية المرأة

مزاج اسكندر عثمان

مستخلص

شمل نظام الإسلام التربوي جميع أنشطة الإنسان الفكرية والسلوكية بما يحقق مصلحة الفرد في ذاته، ويضمن للأمة كلها سلامتها وترابطها، بما يعين الجميع في المجتمع المسلم على القيام بواجب الاستخلاق في الأرض ومن ثم التحقق بالعبودية الخلصة لله تعالى. وتأتي قضية اللباس والزينة بإعتبارها جزئية من الجزئيات المكونة لنظام الإسلام، وخاصية من خصوصيات الشخصية المسلمة التي تحمل في طبيعتها قدرا واضحا من التميز والخصوصية التي تظهر بوضوح في ملامبس المسلمات وتتجلى في أساليب تأنقهن وتجملهن. وقد توصل الباحث إلى نتائج كان من أهما شمول منهج الإسلام التربوي لقضية اللباس والزينة عند المرأة وضبطه لهما بإحكام كما وضح الباحث عمق الحاجة في طبيعة المرأة تجاه اللباس والزينة، مما قد يسوقها إلى شيء من الإفراط عند إشباعها لهذه الحاجة الفطرية، كما أن هذا الميل الفطري كثيرا ما يكون وسيلة استغلال للمرأة من دور الأزياء الأجنبية في نوع اللباس والتأنق مما قد يخرج بالمرأة المسلمة عند الاعتدال

الكلمة الرئيسة : التربوي، المرأة وشخصية

أ. التمهيد

فإن منهج التربية الإسلامية يعد الإنسان إعدادا كاملا من جميع جوانب شخصيته، ليكون إنسانا صالحا في نفسه، مصلحا لغيره ونافعا لمجتمعه. ولا يفرق منهج التربية الإسلامية في إعداده للإنسان بين ذكر أو أنثى، فهو يتعامل بمنهجه التربوي مع نوعي الإنسان، يرعى كلا منهما بما يصلحه ويكمله، ليكون عبدا صالحا لله تعالى، يحقق المقصد الأسمى من مبدأ وجوده الذي حدده المولى عز وجل إذ يقول:﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.

ولما كانت الأنثى من نوعي الإنسان تقوم بمهمات اجتماعية وتربوية ولا تقل أهمية عما يقوم به الذكور في ميادينهم العملية المختلفة – عني منهج الإسلام التربوي بإعدادها إعدادا خاصا لتكون بنتا خاصا وأختا حانية وزوجة صالحة وأما راعية، يحيث يتولاها هذا المنهج الرباني المحكم في كل مرحلة من مراحل حياتها بالإعداد التربوي المناسب الذي يؤهلها للقيام بمسؤولياتها العبادية والاجتماعية المناطة بها.

ولما كانت الأنثى تختلف عن الذكر في جوانب متعددة من طبيعتها الفطرية وحاجاتها النفسية، راعى منهج التربية الإسلامية في النساء هذه الطبائع والحاجات، منطلقا في ذلك من القاعدة الفطرية ونوع المهمة الاجتماعية وطبيعة الوظيفة التربوية المناطة بهن. ولهذا جاءت كثير من التوجيهات القرآنية والنبوية وما بني عليها من الأحكام الشرعية تراعي منهن هذه الاختلافات في الحاجات الفطرية وطبيعة وظيفتهن الاجتماعية. وقد حرص منهج الإسلام على وضع تشريعاته التربوية لإعداد الإنسان وفق جنسه ينشأ الذكور نشأة تربوية رجولية تناسب طبائعهم الفطرية، ومسؤولياتهم الاجتماعية. وفي الجانب الآخر حرص تشريعاته على نشأة الإناث نشأة نسوية تعدهن وفق طبائعهن الفطرية ومسؤولياتهن الاجتماعية، بحيث تتكل مسؤوليات الجنسين وتتعاضد مهماتهما ليتحقق من تكاملهما وتعاضدهما هدف الخلافة في الأرض، ومن ثم يتحقق الهدف الأسمى من خلق الإنسان (الذكر والأنثى) وهو العبودية الخالصة لله تعالى.

وقد شدد منهج الإسلام التربوي على ضرورة التفريق بين منهج إعداد الذكور ومنهج إعداد الإناث، بحيث يبقى لكل منهج معالمه وأهدافه الخاصة التي تميزه عن الآخر، فلا يتداخلان إلا فيما يتحد فيه الجنسان من أصول العقائد والأخلاق، وجمع من الأحكام التشريعية والمباديء الإنسانية العامة دون غيرها من المسالك والأعمال التي تلغي معالم الفروق بين الجنسين. وتأتي قضية اللباس والزينة وما يلحق بهما من مسالك التأنق والتجمل لتكون معلما من أوضح وأبرز معالم التمييز بين الجنسين في التشريع الإسلامي. فبقدر ما ضيقت الشريعة الإسلامية على الذكور في مجال اللباس والزينة بقدر ما وسعت فيهما على الإناث، والناظر يجد ذلك واضحا في أنواع الثياب وألوانها، والحلي وأشكالها ومواضعها من البدن وما يلحق بذلك من المساحيق الملونة والمكاحل المنوعة التي تميزت – بصورة واضحة – بين الجنسين في مجال اللباس والزينة، بل ولا تسمح الشريعة الغراء لأحد الجنسين بأن يتخطى حدوده في اللباس أو الزينة إلى الجنس والآخر. فقد لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم الرجل يلبس لبسة المرأة، والمرأة تلبس لبسة الرجل. فقطع بذلك رسول الله الطريق بين الجنسين في ميدان اللباس والزينة، ليبقى لكل جنس طبيعته الفطرية التي خلقه الله عليها، ليحقق من خلالها مهمته الاجتماعية المناطة به.

ب.حاجة المرأة إلى اللباس والزينة

اتخاذ اللباس من أعظم نعم الله تعالى على بني آدم، وهو مع ذلك فطرة إنسانية ملحة تنزع نحو التجمل باللباس، والاستكثار منه، ولا يعرف إهماله إلا في بعض القبائل النائية الشاذة. وهو في النساء أبلغ ما يكون، إذ يستحوذ على جل اهتماماتهن، فما أن تبلغ إحداهن سن الشباب إلا وتصبح قضية الملابس الجميلة وحسن المظهر من أعظم وأكبر قضاياها الخاصة. حتى إن عجزها في الظهور بما يليق بمثلها في وسطها الاجتماعي قد يجرها إلى مشكلات نفسية واجتماعية حادة. وهذا من الطباع النسائية التي لم ينج منها حتى زوجات النبي صلى الله عليه وسلم رضي الله عنهن، حيث رغبن في التوسع،

وأن ينالهن من الخير ما نال المؤمنين في مجتمع المدينة، بعدما أفاض الله ورسوله من النعم والخير، رغبة منهن في المساواة بغيرهن، والتمتع بشيئ من زينة الحياة الدنيا. ولعل هذا الإلحاح الفطري في طباعهن نحو اللباس والزينة دفع إدارات مدارس البنات – دون مدارس الأولاد – نحو توحيد الزي المدرسي، خشية تماديهن في التزين، وإغراقهن في التأنق.

إن من أعجب عجائب الإناث: فرط تعلقهن بالزينة وميلهن الشديد للتجمل والتلي حتى الصغيرات منهن. فكما أن للملابس الحسنة معنى خاصا عندهن، فإن للزينة في طباعهن ما يساوي ذلك أو يفوقه. فقد تغلغل حبها في كيانهن الفطري وسلوكهن الأنثوي منذ فجر الحياة الإنسانية، حتى لربما انطلقن يتغنين بها غالب أشعارهن، فلا يعرف في التاريخ امرأة لم تأخذ نصيبها من التزين والتجمل لتشبع نهمتها في حب الذات والتفوق الجمالي من خلال رواجها عند الرجل. إذ هو مقصودها الأول والأسمى بحسن التزين والتصنع كما هو حال كثير من النساء، بحيث لو فقدته أو يئست منه لم يعد في الغالب للزينة عندها موضع تهتم له، والمرأة التي تتأنق فقط لترضي ذاتها دون رغبة في الرجل إنما تفعل ذلك في بعض الأحيان بدافع الشعور بالنقص أو التنافس مع القرينات، لأنها في كثير من المواقف لا تتزين لتعزز إرادة نفسها كما يفعل الرجل، وإنما تتزين لتعزز إرادة الرجل فيها، فقدر الزينة الكافية عندها ما يزكيها في عين الرجل، ويروج لمكانها عنده، فهو الذي يحدد لها ما يستملح منها وما يستقبح، فإن هي فقدت الزينة المروجة فغالبا ما تفقد معها الرجل. ولهذا كانت السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها تأمر المتزوجات بالزينة وتشتد معهن في ذلك. حتى قالت لإحداهن مرة: "إن كان لك زوج فاستطعت أن تنزعي مقلتيك فتصنعيها أحسن مما هما فافعلي".

وتعتبر الحلي كذلك أيضا أعظم مظاهر الزينة عند النساء. ولهذا جاءت توجيهات الشارع الحاكم بإباحتها لهن إجماعا، صغيرات كن أو كبيرات، متزوجات أو عازبات. وجاءت تطبيقات السلف في القرون المفضلة موافقة لهذا التوجيه حيث كانوا ينفقون الأموال الكثيرة على حلي البنات والزوجات وعموم النساء دون نكير. وكانوا يعدون التاركة للزينة – شابة كانت أم عجوزا – مع قدرتها عليها معطلة ومتشبهة بالرجال، ويوجبون – إضافة إلى ذلك – في حليها من الذهب أو الفضة الزكاة، في حين أنها لو لبسته، واستمتعت به لأعفيت منها على الراجح من قولي العلماء. كما أنهم لم يحلوا لها الوفاء بالقسم على ترك الزينة، أو الحداد على أحد من الناس – مهما كان عزيزا – "فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشرا"، كما جاء عن الرسول صلى الله عليه وسلم.

والمرأة المسلمة المعاصرة إذا تقيدت في لبسها للحلي بحسن المقصد وتجنبت في أشكالها صور الأحياء المجسمة، واتقت مشابهة الكفار، وحرصت على إخفاء زينتها عن النظر الرجال الأجانب وآذانهم. فإن لها بعد ذلك أن تلبس من الحلي ما شاءت، نفيسا كان أوحقيرا، ذهبا أو فضة، محلقا أو مقطعا، لؤلؤا أو خرزا، عاجا أو عظما مادام طاهرا ليس

بنجس. ولها أيضا أن تلبس من هذه الأنواع على أي جزء شاءت من بدنها دون استثناء، حتى وإن صاحب ذلك شيء من مثله كثقب الأذن أو الأنف.

ج. الضوابط الشرعية في لباس المرأة

من خلال الاستقرار ظهر أن لباس المرأة محكوم بثلاثة ضوابط شرعية لا بد أن تتقيد بها المرأة حتى يحصل لها المقصود الأسمى من اللباس وتسلم أخلاقها وتصوراتها من الانحراف، وذلك على النحو التالي:

أولا ضابط العورة، بحيث يستر اللباس من جهة إسباغه وصفاقته وسعته عورة المرأة، فلا يكشف عن عورتهابقصره، ولا يشف عنها برقته، ولا يصفها بضيقه، مع التحصن بالسراويل الطويلة، والبطائن تحت الثياب الرقيقة، حفاظا على عورتها من الانكشاف. فإن العلاقة في غاية القوة بين فن اللباس والزينة، وبين الجاذبية الجنسية في سلوك الإنسان. فقد قيل: إن الأصل في ظهور الملابس وتطورها يرجع إلى رغبة كل من الجنسين في جذب الجنس الآخر. فلا يصح من المرأة المسلمة أن ترتدي من الملابس ما يثير الشهوة في صدور الرجال من الأجانب أو المحارم أو يبعث الشذوذ في سلوك النساء. فإن هي تقيدت بهذه الشروط، فإن لها بعد ذلك أن تلبس وتستمتع بما شاءت من الأنواع والأشكال والألوان حسب ما يروق لها، إلا أنه يفصل لها أن تتحاشى من الألوان البياض، لأنه غالب لباس الرجال، وأن تعتاد لجلبها وخمارها السواد، لأنه اختيار نساء السلف، وأبعد ما يكون عن الفتنة والإغراء، فإن للون تأثيرا خاصا في الأشخاص، وله معان يحملها للناظرين.

وأما حذاء الفتاة فإنه من مواقع جمالها الملفت وجاذبيتها، كما أن القلنسوة على رأس الرجل من تمام جماله وحسن مظهره. ولعل هذا السبب الذي جعل من أحذية النساء في هذا العصر فتنة كما كانت من قبل في بعض الشعوب المتقدمة، حيث يتحكم ارتفاع الحذاء ونوع هيئته في أسلوب مشيتهن، ويظهر من مفاتن أبدانهن الخفية ومعالم أجسادهن ما وراه الجلباب، وينبه بقرعه عن مكنون زينتهن وما أخفينه من جمالهن. وربما اتخذته إحداهن تتطاول به، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حاكيا حال بعض نساء بني إسرائيل: ((... كانت المرأة تتخذ النعلين من خشب تحاذي بها المرأة الطويلة)). فالحذاء المرتفع المصنع للإغراء والفتنة إن لم يكن بمجمل هذه المحظورات ممنوعا شرعا، فإن أقل ما فيه الكراهة. خاصة وأن ضرره الصحي ثابت عند الأطباء. وفي العموم فإن غالب ألبسة النساء في هذا العصر وضعت للفتنة والإغراء، أكثر من كونها وضعت لصحة الأبدان.

ثانيا ضابط التشبه، بحيث تتميز ملابس المرأة وأزياؤها عن ملابس الكفار عموما وعن ملابس الذكور خصوصا حتى في لبس النعل وعصب الرأس. فإن الأمة الإسلامية اليوم تعاني تخلفا كبيرا أمام الدول المتقدمة في ميدان صناعة ملابس النساء وتصاميمها، حتى سيطر إنتاج دور الأزياء الأجنبية على ذوق المرأة المسلمة وأسلوب تأنفها. فأصبح زي كثير من

النساء المسلمات المعاصرات هو زي المرأة الغربية المتبرج. مما اضطر إحدى المنظمات الإسلامية أن توصى بإنساء "مؤسسات لتصميم الأزياء الإسلامية حماية لقيم الإسلام ورعاية للأذواق الجمالية السليمة وسدا لذريعة ينفذ منها الموبؤون، وإعداء الإسلام على بعض نساء المسلمين ممن ينقصهن النضج والوعي السليم.

إن خطورة إشراف الأجانب على لباس الفتيات المسلمات لا تكمن فقط في كون أزيائهم تحمل أحيانا معلما دينيا لهم كالصليب ونحوه، بل إنها تذيد على ذلك في كونها تتوجه بقوة خفية عبر أساليب التصميم الماكرة لإعطاء ملابس الإناث صبغة ذكورية بحيث تدخل أشكل أزيائهن تحت أنماط أزياء الرجال بصورة متدرجة حتى أصبح مجتمع اليوم بصورة تلقائية لا يستنكر ظهور المرأة في ملابس الذكور، في حين لا يزال حتى الأن يستهحن ويستنكر بروز الذكور في ملابس النساء ويعاقبهم على ذلك قانونا. ولا شك أن في هذا خطرا على مسلك المرأة الفطري، فإن نهاية تشبهها بالرجال هو انتقالها إلى طباع الرجال، فلا تتحرك فيها طباع جنسها الفطرية.

إن التصور الإسلامي لا يفرق بين الأمرين، فكل مسالك التشبه بين الجنسين داخلة في المذمة الشرعية. وليس في تعامل السلف ما يدل على التفريق بينها، بل كانوا في غاية الصرامة والشدة مع الفتيات المتشبهات في ملابسهن بالذكور. فلا بد أن تراعي المرأة المسلمة هذا الضابط الشرعي في ارتداء الملابس، فإن قضية اللباس والأزياء ليست مفصلة عن شرع الله ومنهجه للحياة، بل مرتبطة به كل الارتباط.

ثالثا ضابط الإسراف، بحيث تعتدل المرأة في استهلاك الملابس من جهة النوع ومن جهة الكم، فتعرف كيف تلبس وتتأنق بما يليق بمثلها. فإن من المروءة أن يكون الإنسان معتدل الحال في مراعاة لباسه من غير إكثار ولا إهمال، فإن إهمال مراعاتها وترك تفقدها مهانة وذل، وكثرة مراعاتها وصرف الهمة إلى العناية بها دناءة ونقص. فالجواز هو الأصل في اتخاذ الملابس المباحة والتجمل بها حتى وإن كانت نفيسة الأثمان. فقد كسا رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه الحرير. وكان يقول لأصحابه: ((... حقهن عليكم أن تحسنوا إليهن في كسوتهن وطعامهن)). وقد كان السلف يتمثلون أمر الرسول صلى الله عليه وسلم في ذلك، فعن محمد بن ربيعة بن الحارث قال: كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوسعون على نسائهم في اللباس الذي يصان ويتجمل به، ثم يقول: ((رأيت على عثمان مطرف خز ثمن مائتي درهم، فقال هذا لنائلة كسوتها إياه، فأنا ألبسه أسرها به)). إلا أن الضابط في هذا أن تستهلك الملابس استخداما، ولا تصل أنواعها بالمرأة إلى حد التميز الاجتماعي والافتضاح، فإن ثوب الشهرة مذموم شرعا، والاستكثار المفرط من ملابس النساء مكروه في حد ذاته خاصة الجميلة منها، لأنها كثيرا ما ترغب إليهن الخروج والبروز والتبرج. وقد كان عمر رضي الله عنه يقول: ((استعينوا على النساء بالعرى، فإن إحداهن إذا كثرت ثيابها وحسنت زينتها أعبجها الخروج)).

إن زمنا ليس ببعيد كان الثوب الحسن يبقى مع المرأة دهرا طويلا، حتى إنها ربما ورثته بعض بناتها أو أعارتها جاراتها. وربما لم يكن لإحداهن إلا الثوب الواحد تحيض فيه وتطهر. فلم يكن يعرف إلى عهد قريب الإسراف في الملابس حتى ظهر تفنن دوى الأزياء النسائية في إنتاج الجديد من أنواع الملابس، ففرض على النساء نظام "الموضة" بصورة غير مباشرة بحيث تخضع أنواع الأزياء وأشكالها المختلفة إلى مواسم خاصة فصلية وسنوية، تصبح بعدها الأزياء حتى وإن كانت جديدة مهملة في نظر المرأة لا قيمة لها، ضمن صور متشابهة متكررة، وحلق دائرية مفرغة من التجديد والتطوير، لا نهاية لها إلا مزيدا من هوس الشراء واستهلاك المال. وقد كان الشواب من النساء و لم يزلن ضمن فتنة الموضة أكثر فئات المجتمع تأثرا بها وخضوعا لمتطلباتها.

إن من الضروري أن تعرف المرأة، أن نظام الإسلام التربوي في مثل هذه المواقف الاجتماعية يأمرها بالنظر إلى من هن دونها في المرتبة والمكانة وليس لمن هن فوقها، وذلك حتى تقنع بها عندها وترضى، فإن مجاراة المترفات المتنعمات لا تزيدها إلا غما وهما. كما أن خضوعها واستسلامها لنظام الموضة، وما تفرضه من أنواع الأزياء يعتبر نوعا من العبودية القيتة. فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((تعس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة إن أعطي رضي وإن لم يعط لم يرض)). كما ينبغي عليها أن تعلم: أن هذه الموضوعات غالبا ما تنتشر في الأوسط الاجتماعية المختلة التي ضعفت فيها الثوابت والمبادئ، فيسعى أعضاؤها للحصول على اعتراف بالمكانة، وللإعراب عن الذات عن طريق تقليد الصفوة. فلا يليق بالمرأة المسلمة أن تنساق إلى مثل هذه المزالق الاجتماعية الخطيرة، فتستهلك أوقاتها وطاقاتها الجسمية وثورتها المالية في غير طائل.

د. تأثير اللباس في شخصية المرأة

لما كان من الطبيعة الإنسانية أن يتأثر الفرد - إيجابيا أو سلبيا –بما يجري على جوارحه، فإن للملابس في أنواعها وأشكالها وطريقة ارتدائها آثارا بارزة في سلوك الأفراد ذكورا كان أو إناثا. وليس من شك في أن مصطفى كمال باشا أتاتورك حينما فرض القبعة لباسا وطنيا للشعب إنما أراد بذلك تغيير نفس لا تغيير ملبس، إذ إن الملبس يحكم تصرفات الإنسان إلى حد بعيد، فكما أن تقليد الباطن في الأفكار والآراء يتبعه تقليد للظاهر في الملابس والأزياء فكذلك تقليد الظاهر كثيرا ما يتبعه تقليد للباطن، فالعلاقة بينهما قوية. ولهذا خضعت الأزياء عند الشعوب عامة – و الإسلامية منها خاصة – لتقاليد دينية وعادات مرعية تفرض على الأفراد التقيد بها. وعدم تجاوزها. وإنما تختل هذه التعاليم في نفوس أهلها ويضعف أثرها في فترات اختلال الوسط الاجتماعي وضعف أثره، فتظهر بوادر التمرد أقوى ما تظهر في ملابس الشباب ووسائل لهوهم. ومن هن لا بد أن تتأثر شخصية المرأة بنوع الملابس التي ترتديها وتتأنق بها. ولعل من الأمثلة التي تدل على ذلك تأثير

قيمة اللباس وجماله على شخصية المرأة، فحين ترتدي إحداهن اللباس الجميل الغالي الثمن كثيرا ما تنعكس قيمته على سلوكها إعجابا وترفعا بين القرينات. وكذلك إذا لبست الثمين من الحلي فإنها كثيرا ما تسعى فتبرزه وتتباهي به. ولهذا ورد في السنة الترهيب من مثل ذلك.

ولهذا جاءت الشريعة الإسلامية السمحة في مثل هذه المواقف الاجتماعية بتوجيه المرأة للنظر في أمر الدنيا وزينتها إلى من هو دونها، والنظر في أمر الآخرة وأعمالها لمن هو فوقها، فهذا أجدر حتى لا تحتقر نعمة الله عليها. وفي الحديث قال عليه الصلاة والسلام : ((اظروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فهو أجدر أن لا تزدوا نعمة الله.

٥. الخاتمة

إن حاجة المرأة إلى الزينة المشروعة معتبرة شرعا، فإن بطبيعتها الفطرية تحتاج إلى استنطاق جسمها رغبة في الإثارة من خلال زينة الوجه والكفين والشعر ونحوها. ولكنها مع ذلك محتاجة إلى كوابح تضبط فرط ميلها وعمق استغراقها. فإن الحافز الجنسي الناشيء عن الجمال الطبيعي، المزين بما لايخرجه عن أصل الخلقة، حافز راق سام عميق. وأما الحافز الناشيء عن جمال ناشيء من تغيير خلق الله فهو حافز شيطاني ناري لا يلبث أن يفتر ويشيخ. وقد ظهر في فرنسا مع بداية القرن العشرين الميلادي ما يؤيد العمق الشيطاني في التزين وهم مذهب "المدرسة التوحشية" التي تتميز بالألوان الصارخة والخطوط السوداء، وكل ذلك مناف للفطرة السوية، فإن أحسن الحسن ما لم يجلب بتزيين وتضييق وتحلية وتزويق، مما لا تكلف فيه ولا مبالغة.